

# الفصل الأول

## التعريف بالدعوة

أرسل الله عزت قدرته وجلت حكمته رسوله بالهدى ودين الحق مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وكانت حياته العظيمة المثل الأعلى في مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال ، عامرة بالخير والهدى ، وكان في دعوته وعبادته ، وفي حربه وسله ، وفي أسرته وبين أصحابه ، وفي كل مظهر من مظاهر حياته مصداقاً لقول الله تعالى فيه : « وإنك لعلى خالق عظيم » ، وتحقيقاً لقوله صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . رواه ابن ماجه . وقوله : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » . رواه العسكري عن علي وهو ضعيف لكنه صحيح المعنى ، صححه أبو الفضل بن ناصر من طريق آخر . حتى اضطرت دعوته الصادقة القوية ، وأخلاقه السامية كثيراً من العقلاء الذين هدام الخلق النبوي ، والذين كانت نفوسهم مستعدة لقبول دعوة هذا الرسول الصادق الأمين إلى نبذ معبوداتهم والإصغاء لداعى الحق والاستماع لآيات الله البينات ، عاملين بها مخلصين دينهم لله ، وصاروا نوراً يهتدى به إلى طريق التدين الصحيح ، فزاد عدد المسلمين ، وأخذوا يتكاثرون ، ولم يترك الرسول صلوات الله وسلامه عليه وسيلة من وسائل نشر الدعوة إلا سلكها ، وأمر أصحابه رضی الله عنهم بالتأسي به والسير على نهجه - وكانت دعوته غير تبليغ القرآن واردة من طريق الخطابة في الجوامع والأسواق ، وهجرة أصحابه في سبيل الله وإعلاء كلمته وإرسال كتبه ورسله إلى الملوك والأمراء ، بل كانت حياة الصحابة يومئذ في ذاتها دعوة قوية إلى دين الله وأساساً لهداية الناس إليه . ذلك بأنهم رضوان الله عليهم فهموا سنة الرسول وتأثروا بهديها وفهموا غايتها الشريفة ، فتحملوا الأمانة بمجدارة وأدوها حق التأدية ، فكانوا

في رسالتهم العلمية مثل رسالتهم العملية ، في تأدية الواجب على أكمل وجه وأعلى مثال ، فكانوا قدوة صالحة وأسوة حسنة ، وأئمة يهدون بأمر الله إلى دين الله .

ومن أمعن النظر علم أن الدعوة إلى الله حياة الأديان . وأنه ما قام دين من الأديان ، ولا انتشر مذهب من المذاهب ، ولا ثبت مبدأ من المبادئ إلا بالدعوة . وما تداعت أركان ملة بعد قيامها ، ولا درست رسوم طريقة بعد ارتفاع أعلامها ، ولا تلاشت نزعة من النزعات بعد إحكامها ، إلا بترك الدعوة . فالدعوة حياة كل أمر عام تدعى إليه الأمم والشعوب ، سواء أكان ذلك الأمر حقاً أم باطلاً .

ولقد علمنا التاريخ ، أنه ما قام أحد يدعو إلى شيء إلا وجد له أنصاراً وأتباعاً — وما نحن أولاء نرى المذاهب الباطلة تنمو بالدعوة ، والمذاهب الحقة ياهمال الدعوة تتضائل — ولو كان الحق يقوم بنفسه وينتشر بذاته ، لأنه الحق ، لما فرضت علينا الدعوة إليه ، ولما كان ثم حاجة إلى الأنبياء والمرسلين ، وورثتهم من العلماء العاملين والمرشدين الناصحين ، الداعين إلى الهدى ودين الحق ، ولما وصف الله عز وجل الدعوة إليه بأنها أحسن القول ، ولما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكر للناس أن طريقته التي يسلكها هو ومن كان على قدمه ، إنما هي الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة .

وللدعوة إلى الله مراتب : ( الأولى ) دعوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ودعوتهم راجحة على دعوة غيرهم من وجوه : ( ١ ) أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولاً والدعوة بالسيف ثانياً ، حماية لها ودفاعاً عن الحق وأهله ، لا قهراً على الدخول في الدين . فما شرع الجهاد إلا لحماية الدعوة ومنع الاعتداء على المسلمين وتأمينهم على دينهم وعقيدتهم ، وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقتين . ( ٢ ) أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة ، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء والسابق بإظهار الأمر الشريف أفضل ( ٣ ) أن نفوسهم أقوى قوة ، وأرواحهم أصفى جوهرأ ، فكانت تأثيراتها في إحياء القلوب الميتة ، وإنارة النفوس

المنظمة أكل (٤) أن نفوس الأنبياء حصل لها مزيقان : الكمال في الذات والتكميل للغير ، فكانت قوتهم على الدعوة إلى الله تعالى أقوى ، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل ( المرتبتان الثانية والثالثة ) دعوة العلماء والملوك بطريق الخلافة عن أنبياء الله تعالى ، وذلك أن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام صفتين : العلم والقدرة ، والعلماء نواب الأنبياء في العلم ، والملوك العادلون نواب الأنبياء في القدرة . والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح ، والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد . فالعلماء خلفاء الأنبياء في عالم الأرواح ، والملوك خلفاء الأنبياء في عالم الأجساد .

وبهذا علم أن أكل الدرجات في الدعوة إلى الله عز وجل بعد الأنبياء درجة العلماء . ثم هم على ثلاثة أقسام : العلماء بالله وهم الحكماء الذين قال الله تعالى فيهم : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » والعلماء بصفات الله تعالى وهم أصحاب الأصول ، والعلماء بأحكام الله تعالى وهم الفقهاء . ففي القرن الثاني كان الدين شغل العلماء الشاغل ، فقد عكف قوم على مواظب الدين وحكمه وآدابه وما يحض على مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال ، وهم الزهاد والنسك . وقوم على تعرف أصول الدين ومعرفة وجود الله تعالى وصفاته ، وإرسال الرسل ، وإمكان المعجزات ، وما إلى ذلك ، وهم المتكلمون ، وقوم على تخريج أحكام الفروع ومعرفة الحلال والحرام ، واستنباط ذلك من الكتاب والسنة وهم الفقهاء .

والكل كانوا على جانب عظيم من العلم والعمل والتقوى والورع ، والكل بحاله هذا كان داعياً إلى الله تعالى . وأما الملوك العادلون فهم أيضاً يدعون إلى دين الله تعالى بالسيف بوجهين : إما بتحصيله عند عدمه بمحاربة الكفار المعاندين المعتدين على أهله ، وإما بالحفاظة عليه عند وجوده بنحو قتل المرتدين وقمع العابثين به ، والضرب على أيدي المتمردين عليه المفسدين في الأرض .

وبالجملة فالدعوة إلى طاعة الله وتوحيده وإرشاد الخلق إلى الصراط السوي ووظيفة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، يخلفهم فيها كبار أتباعهم

والعظماء من أولى العلم وذوى القدرة على ضبط الأمور والتأثير فى الأرواح وجذب النفوس إلى الخير ممن يسلكون سنتهم ويهتدون بهداهم .

وأن الداعى إلى الله تعالى خليفة الله فى أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه فى تبليغ شرائعه ، وفى بيان هديه وسنته ، وفى بيان عقائده وأحكامه ، وأخلاقه الكريمة ، وعظاته البالغة ، وأسرار التشريع .

إن الدعوة إلى الخير تربية ، والتربية المفيدة إنما تكون بالعمل لأنها مبنية على القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة . ذلك أن التقليد عريق فى بنى الإنسان يميل إليه بفطرته ، والمثل العليا أمامه تزيد فى شوقه وأضعف همته وتهيب به إلى الاحتذاء بل المنافسة ، ومن لم يثابر على احتذاء الأمثلة الكاملة النافعة ضعف عقله وأظلمت بصيرته ، وخرج عن ماتقتضيه الفطرة السليمة ، ولم يكن فى عداد الصادقين الذين أمر الله أن يكون فى زميرتهم : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » ، « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم » . ولا ريب أن مقصود الدعوة إلى الله تعالى نشر الهداية الإسلامية بتصحيح العقائد واستقامة الأعمال وتهذيب النفوس وتوثيق عرى الوحدة والإخاء بين المسلمين ، ومقاومة الإلحاد ودفع الشبهات عن الدين . وأقرب طريق لبلوغ هذا المقصد الأسمى الوسائل الآتية : -

( ١ ) بث الدعوة إلى الإسلام بقدر الطاقة ( ٢ ) انتشار المرشدين الناصحين بين المسلمين ولاسيما القرى النائية وأهل البوادر منهم ( ٣ ) نشر رسائل وكتب دينية تشتمل على أصول الإسلام وفروعه وفضائله وآدابه وأسرار التشريع فيه .

( ٤ ) إلقاء المحاضرات والخطب الدينية فى الأندية والمجتمعات العامة ونشر المقالات فى الصحف ( ٥ ) إنشاء صحف ومجلات باللغة العربية وغيرها فى الأقطار المختلفة ،

تعنى بالشئون الإسلامية ( ٦ ) العمل على إصلاح منهج الخطب المنبرية ودروس الوعظ والارشاد فى المساجد ( ٧ ) السعى لدى حكومات البلاد الإسلامية ومدارسها

الأهلية لأجل العناية بالتعليم الديني والتربية الإسلامية ، وبهذا وحده تسعد الأمم الإسلامية وتسلم من خطر الشقاء في العاجل والآجل إن شاء الله تعالى .

### معنى الدعوة

الدعوة من الدعاء إلى الشيء بمعنى الحث على قصده ، ومنه قول الله تعالى : « قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » من مواتها والوقوع في الفاحشة التي تذهب بخيرى الدنيا والآخرة ، وقوله جلّ ثناؤه : « والله يدعو إلى دار السلام » السلامة من كل المكاره والأمن من جميع المخاوف وهي الجنة ، ومثلها الدعاية . وفي كتاب هرقل « أدعوك بدعاية الإسلام » أى بدعوته وهي كلمة الشهادة التي يدعى إليها أهل الملل الكافرة .

وفي العرف حث الناس على الخير والهدى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل - وهي ثلاثة أنواع : (النوع الأول) : دعوة الأمة المحمدية جميع الأمم إلى الإسلام ، وأن يشاركونهم فيما هم عليه من الهدى ودين الحق وهذا واجب هذه الأمة بتقتضى جعلها خير أمة أخرجت للناس مقيداً بكونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وبحكم وصف المؤمنين الذين أذن لهم في القتال في قوله تعالى : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » ، فالواجب دعوة الناس إلى الإسلام ، فإن أجابوا فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

( النوع الثانى ) : دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلى الخير ، وتأميرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر ، ويقوم بهذا النوع كالذى قبله خواص الأمة العارفون بأمر الدين ، وأسرار التشريع ، وهم المشار إليهم بقوله تعالى : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ( النوع الثالث ) : ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ، ويستوى في ذلك

الخاصة والعامة بالدلالة على الخير والترغيب فيه ، والنهي عن الشر والتحذير منه ، كل ( ٢ )

بما يعرفه ، فإذا رأى أحد المسلمين أخاه على مفكره يعلمه تصدى لنصحه وإرشاده وبيان ما يأمر به الدين الحنيف وما ينهى عنه في هذه الواقعة ، كل ذلك برفق ولين فذلك من التواصي بالحق والتواصي بالصبر الذي جعله الله عزّ وجل آية الإيمان الصحيح ، وسبباً للنجاة من الخسران المبين في قوله تعالى : « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

### الحاجة إلى الدعوة

إن الله عزت قدرته ، وجلت حكمته ، خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وركبه في أحسن صورة ، وكرمه وعظمه ، وعلى كثير من خلقه فضله ورفع ، كرمه بالفكر والعقل يميز به الحسن من القبيح ويفرق بين الحق والباطل ، ولكن العقول البشرية وحدها لا تستعمل بإدراك المصالح الدنيوية فضلاً عن الأخروية ، ولا تهتدى وحدها إلى تمييز الخير من الشر ، والمعروف من المنكر ، وليس من غرائزها الوقوف على حقائق الأمور ، ولا أن تدرشثونها على نظام محكم عادل لا خلل فيه ولا انحراف فيها - وإن وصلت إلى العاية القصوى من الإدراك - قد تميل عن الحق إلى الباطل ، وتنحرف عن الصلاح إلى الفساد ، ويخفي عليها وجه المصلحة ، ولا تهتدى إلى مغبة الأعمال ، وكثيراً ما يبدو لها الشر في لباس الخير فتقع فيه ، وكثيراً ما ظهر لها الخير في صورة الشر فأعرضت عنه « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وإن اهتدت العقول البشرية إلى إدراك الخير أو الشر ، فقد تتغلب عليها الشهوات ، أو يشتد بها الغضب والحسد ، فيصرفها ذلك عن النافع أو تقع في الضرر - وإن خلصت العقول من أسر الشهوات ، أو تسلط الغضب والحسد ، فقد لا نسلم من غوائل الخلاف والنزاع ، لاختلاف المدارك والمشارب في أصل الفطرة والحياة ، فترى الإنسان يستحسن عين ما يستقبحه غيره ، بل الإنسان الواحد قد يطره له الشيء حسناً في وقت فإذا لم يلائم غرضه في وقت آخر عدّه قبيحاً ، وكثيراً

ما يكون الشيء الواحد مشتملاً على مصلحة ومفسدة ، فيحب إنسان جلب مصلحته فيبادر إليه ، ويميل آخر إلى درء مفسدته فيفر منه .

فلما كانت العقول البشرية قاصرة عن إدراك مصالحها في هذه الحياة وفي تلك الحياة وعاجزة عن الإطلاع على الحقائق ؛ وكانت عرضة لتغلب الأهواء والشهوات وما إليها من الرذائل النفسية عليها ، وكان من طبائعها اختلاف المدارك والميول .

لما كانت كذلك اشتدت حاجة البشر إلى الهداة المصلحين ، والدعاة الناصحين ، يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، ويدعونهم إلى ما فيه الخير والسعادة ، ويحذرونهم من السقوط في مهاوى الشرور والشقاء ، ويحررون العقول من رق الأهواء والشهوات ، ويطهرون النفوس من أدران النقائص والرذائل ، ويعرفونهم كيف يتقون الفتنة عند الاختلاف ، وأولئك هم الأنبياء والمرسلون ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وبهذه الدعوة الرشيدة التي استنارت بها البصائر واهتدت العقول - لك المجتمع الإنساني طريقاً قويمًا وصراطاً مستقيماً ، فلم من مخاطر الشقاء ، وفاز بحياة طيبة ، ثم مازال الاجتماع بعد انقضاء عهد النبوة والرسالة في أشد الحاجة إلى دعاة مرشدين ، وناصحين صادقين أمناء يحمون دين الله من عبث العابثين ، ويحرسون عقائد الاجتماع ، ويراقبون الأعمال والأخلاق ، ويرشدونه إلى الخير ويحذرونهم من عواقب الشر ، وينيرون السبيل إلى ما فيه الخير والسعادة .

وما فيه المسلمون اليوم من سوء الحال أثر تفریط عظيم في طاعة الله ورسوله ، بعد ما عظم التساهل والتواكل في أمر الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكثر التهاون وإهمال التناصح ، ورد ما يفتن فيهم المسلمون إلى كتاب الله وسنة رسوله ، حتى خوت القلوب من الحياء واحترام الدين ، فلم يبق له سلطان على النفوس ، بل صار كل إنسان أسير شهوته وهواه : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

## وجوب تبليغ الدعوة

قد علمت مما تقدم أن الحاجة إلى الدعوة إلى الله تعالى شديدة ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، والمهم الذي بعث الله له النبيين والمرسلين ، ولو أهمل أمره لاضمححل الدين وفشا الضلال وعم الفساد ، وهلك العباد ، وساء حال الجمعية البشرية ، لهذا جاء وجوبه في الكتاب والسنة ، وعليه انعقد الإجماع ، قال الله تعالى : ( واتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ) فقد أوجب على المسلمين أن تقوم منهم طائفة بوظيفة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حفظا للشريعة من أن يتجاوز حدودها المعتدون ، وصونا لأحكامها من أن يتعالى عليها ذوو الشهوات ، ويخلوا بنظامها ، وتحرفهم عن العمل بها الأهواء الفاسدة إذا هم تركوا وشأنهم ، فالحاطب بهذا كافة المسلمين ، فهم المكلفون أن يختاروا منهم طائفة تقوم بهذه الفريضة ، فهنا فريضتان إحداهما على جميع المسلمين ، والثانية على الجماعة التي يختارونها للدعوة — والدعاء إلى الخير الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي — فعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه مع اندراجهما فيه ، من باب عطف الخاص على العام ، إظهارا لفضلهما وشرفهما على سائر الخيرات ، وأنها الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه ، كمعطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام . في آية ( من كان عدوا لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو للكافرين ) : وقال جل ثناؤه : ( فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ) أوجب جل شأنه على كل جماعة كثيرة من المسلمين كأهل بلدة ، أو قبيلة عظيمة ، أن تقوم منهم جماعة قليلة ليتعلموا الدين ، ويحملوا غاية سعيهم ومرمى غرضهم من العلم بإرشاد قومهم ، وإسداء النصيحة لهم .

وبالجملة فقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه يجب على كل أمة أن يكون منها

جماعة بقدر الحاجة تقوم بالتفقه في أمر الدين ، وأن يكون المقصود منه دعوة الخلق إلى الحق ، وإرشاد الناس إلى الدين القويم والصراط المستقيم — ولا ريب أن من تعلم لهذا الغرض العظيم ، كان على المهج القويم ، وفاز مع الفائزين ، كما قال تعالى : ( وأولئك هم المفلحون ) وقال جل ثناؤه : ( وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ) أى لا تدع التذكير والموعظة فإنها تؤثر في الذين قدر الله تعالى إيمانهم ، أو الذين آمنوا بالفعل ، فإنها تزيدهم بصيرة في الدين ، وقوة في اليقين .

ولقد شدد بالانكار على قوم أغفلوا هذه الفريضة ، وأهل دين أهملوها فقال جل ثناؤه : ( لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ) فقذف عليهم اللعنة وهي أشد ما عنون الله به عن مقته وغضبه ، فالملعون منه تعالى هو المحروم من لطفه وعنايته ، المطرود عن باب رأفته ورحمته . وقد كان داود عليه السلام لعن المعتدين عامة والذين اعتدوا في السبت خاصة ، ثم لعنهم عيسى عليه السلام ، وكان سبب ذلك اللعن الذى طال أمده عصيانهم لله تعالى واعتدائهم المستمر — وقد بين جل ثناؤه ذلك العصيان ، وسبب استمرارهم على الخروج عن حدود الله ، بأنهم كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر ما من المنكرات مهما اشتد قبجه ، وعظم ضرره ، والنهى عن المنكر حفاظ الدين وسياج الآداب والكمالات ، فاذا أهمل تجرأ الفساق على إظهار الفسوق والفجور بلا مبالاة ، ومتى صار العامة يرون المنكرات بأعينهم ويسمعونها بأذانهم تزول عنهم وحشيتها وقبحها من نفوسهم ، ثم يتجرأ الكثيرون على ارتكابها — ذلك كان شأن القوم ودأبهم الذى اعتادوه ، وأصروا عليه ، ذكره الله للمؤمنين عبرة لهم حتى لا يفعلوا فعلهم فيكونون مثلهم ، ويحل بهم من لعنة الله وغضبه ما حل بهم . روى أبو داود والترمذى وحسنه ، وابن ماجه وغيرهم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل

يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : « لعن الذين كفروا - إلى قوله فاسقون » ثم قال صلى الله عليه وسلم : « كلا والله لتأمرنَّ بالمعروف وتنهونَّ عن المنكر ثم لتأخذنَّ على يد الظالم ولتأطرنَّه على الحق أطراً ، ولتقصرنَّه على الحق قصراً ، أو ليضرب الله على قلوب بعضهم ببعض ثم يلعنكم كما يلعنهم » لتأطرنه : بكسر الطاء وضم الراء لتردنه و بابه ضرب ، وأصل الأطر العطف ، ولتقصرنه بضم الصاد والراء تمنعنه من مجاوزته ، و بابه نصر . وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ؛ فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم . وفرق بين تغيير المنكر وبين النهي عنه ، فإن النهي عن الشيء يكون قبل فعله ، وإلا كان رفعا للواقع ، فإذا علمت إنساناً ينقص المكيال والميزان ، أو ينش اللبث مثلا ، وجب عليك تغيير ذلك ومنعه منه بالفعل إن استطعت - والاستطاعة هنا شرط بالنص - فإن لم تقدر على ذلك وجب عليك التغيير باللسان ، وهو غير قاصر على نهى الفاش ووعظه ، بل يدخل فيه رفع أمره إلى الحاكم الذى هو أقدر منك . أما التغيير بالقلب فهو عبارة عن مقت الفاعل وعدم الرضا بفعله ، بل ومقاطعته وترك مجالسته ، ومعاملته ، وإقراءته السلام ، والرد عليه ، يدل على هذا ما فعله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر ، وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية . ومعنى كون ذلك أضعف الإيمان أنه أقل آثاره وثمراته فى النفع ، لأن مجرد كراهته له بقلبه لا يحصل بهازوال مفسدة المنكر المطلوب إزالته ، فهو قاصر بخلافه باليد واللسان فإنه متعد لأنه كراهة وإزالة وفى خبر آخر : « ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » وهو كناية عن نهاية القلة ، لأن الرضا بالعصيان الناشئ عن غلبة الشهوة نقصان من الإيمان أى نقصان .

والمراد أن آخر خصال الإيمان المتعينة على العبد وأضعفها الإنكار بالقلب وكراهة المنكر ، ولم يبق بعدها مرتبة أخرى . ويؤخذ منه أن عدم إنكار قلب المسلم للمنكر دليل على ذهاب الإيمان منه . وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسى بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهوننَّ عن المنكر أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » رواه الترمذى وقال : حديث حسن ، إلى غير ذلك من الآيات والأخبار .

ولا ينافى الوجوب قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » لأن معنى الآية أنكم إذا فعلتم ما وجب عليكم فلا يضركم تقصير غيركم ، مثل قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . ومما وجب علينا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ لا يكون المرء مهتدياً مع تركه لهذه الفريضة ، فإذا قام بها ولم يمتثل المخاطب فلا جناح عليه بعد ذلك ، لأنه أدى ما عليه ، والذي عليه القول لا القبول ، وهذه شبهة قديمة العهد عرضت للناس في الصدر الأول . روى أحمد والترمذى وأبو يعلى وغيرهم من حديث قيس بن حازم قال : قام أبو بكر خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنكم تقرءون هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإنكم تضعونها على غير موضعها أى يتوهمون منها أن الإنسان إذا فعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه فى نفسه ، ورأى غيره يصد ذلك فلم يأمره ولم ينهه ، لا حرج عليه ، وليس كذلك ، وإى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

وشرط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قدرة وتجويز فأئدة وإن لم تكن الامتثال مثل كسر جاه الفاسق وخشية أن يعتاد النش فعل المنكر ، وترغيب الطائعين فى امتثال الأمر واجتناب النهى ، ومثل رجاء أن يتعظ فلا يقع المكروه بعد ذلك ، وألا يخاف مكروها يناله ، وألا يترتب عليهما محذور آخر ، فإذا لم تتوافر

هذه الشروط سقط الوجوب وبقى الجواز . وقد استوفينا الكلام على هذا المبحث في كتاب « الإيداع » في الفصل السابع فارجع إليه إن شئت والله الهادي إلى سواء السبيل .

### حكم من لم تبلغه الدعوة

وأما حكم من لم تبلغه الدعوة بأن نشأ في شاطئ جبل ؛ فليس بمكلف على الأصح خلافا لمن قال إنه مكلف لكفاية العقل في وجوب معرفته تعالى عندهم . وإن لم تبلغه الدعوة - وعلى القول بأن بلوغ الدعوة شرط في التكليف لا يكفي بلوغ دعوة أي رسول ولو سيدنا آدم ، بل لابد من بلوغ دعوة الرسول الذي أرسل إليه . فالمذهب الحق أن أهل الفترة ( وهم من كانوا بين أزمانه الرسل أو في زمن الرسول الذي لم يرسل إليه ) ناجون وإن غيروا وبدلوا وعبدوا الأوثان - وما ورد من أنه صلوات الله وسلامه عليه أخبر بأن جماعة من أهل الفترة في النار كما مرىء القيس وحاتم الطائي ، وبعض آباء الصحابة ، فإن أحد الصحابة سأله وهو يخاطب فقال أين أبي ؟ فقال : في النار . فهي أحاديث آحاد لا تعارض القطعي وهو قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ويجوز أن يكون تعذيب من صح تعذيبهم منهم لأمر يختص به يعلمه الله تعالى ورسوله . وإذا علمت أن أهل الفترة ناجون على المذهب الحق ، علمت أن أبويه صلوات الله وسلامه عليه ناجيان لكونهما من أهل الفترة - والقول باشتراط بلوغ الدعوة في التكليف هو مذهب الأشاعرة وجميع من غيرهم ، فعرفه الله تعالى وجبت عندهم بالشرع وكذلك سائر الأحكام إذ لا حكم قبل الشرع لأصليا ولا فرعيا - وذهبت المعتزلة إلى أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل بمعنى أنه يستقل بإدراك الأحكام وإن لم يرد الشرع ، ويقولون إن الشرع جاء مقويا ومؤكدا للعقل - وبنوا كلامهم على التحسين والتقييح العقليين ، فالحسن عندهم ما حسنه العقل ، والتقييح ما قبحه العقل ، فإذا أدرك أن هذا الفعل حسن بحيث يمدح على فعله ويذم على تركه حكم بوجوبه ، وهكذا . وأما مذهب الأشاعرة فالحسن ما حسنه الشرع والتقييح ما قبحه الشرع - ومذهب

الماتريديّة أن وجوب المعرفة بالعقل بمعنى أنه لو لم يرد به الشرع لأدركه العقل استقلالاً — لوضوحه لا بناء على التحسين العقلي — كما قالت المعتزلة ، والحق أن للعقل لا يستقل بشيء أصلاً .

فتلخص أن المذاهب ثلاثة : مذهب الأشاعرة ، وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالشرع لكن بشرط العقل — والثاني مذهب الماتريديّة ، وهو أن وجوب المعرفة ثبت بالعقل دون سائر الأحكام — والثالث مذهب المعتزلة وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل — وقد علمت الفرق بين قول الماتريديّة بوجوب المعرفة بالعقل وقول المعتزلة بثبوت الأحكام بالعقل ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

## الفصل الثاني

### السنن العامة في دعوة الرسل إلى الدين

من أنعم النظر فيما قصه الله تعالى في كتابه الحكيم على رسوله الصادق الأمين من أنباء الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، يرى أنهم قد انفقوا على دعوة أقوامهم إلى توحيد الألوهية والربوبية وإخلاص العبادة والخضوع له تعالى ( توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بالعبادة ، وتوحيد الربوبية هو اعتقاد أن الله تعالى رب العالمين المتصرف في أمورهم ) والإيمان باليوم الآخر وما فيه من البعث والجزاء على الأعمال ، والإيمان بالرسل من غير تفريق بين رسول ورسول ، والترغيب في طاعة الله جل وعلا ، والترهيب من مخالفته وعصيانه ، والحث على التحلي بالأخلاق الحسنة ، والتحذير من الأخلاق السيئة — ويرى أيضاً أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يعالجون الأمراض الاجتماعية الفاشية في أممهم — فترى نوحاً وهوداً وصالحاً وإبراهيم عليهم السلام يهتمون كثيراً بالتوحيد والقضاء على الشرك بشقي الوسائل ، لأن الوثنية كانت متسلطة على عقولهم ، وترى لوطاً عليه السلام جعل همه في القضاء على الفاحشة ( اللواط ) لافتتان القوم بها ، وترى